



المعهد العربي للخطوط العربية
INSTITUTE OF ARABIC MANUSCRIPTS (IAM)

ثقافة

المخطوط العربي

مجلة فصلية تُعنى بالتراث العربي المخطوط

استلهام التراث في المسرح العربي بين الحقيقة التاريخية والتجربة الجمالية



- ◆ ثقافة محقق النصّ البلاغيّ
- ◆ أنماط التصنيف في السيرة النبوية
- ◆ المسجد الأقصى ودوره في التعليم خلال العهد العثماني
- ◆ آداب النساخين ومعاناتهم في الكتاب العربي المخطوط

مقدمة:



كانت السيرة النبوية من أسبق ميادين المعرفة التاريخية ظهوراً عند المسلمين؛ لاتصالها المباشر بحياة النبي ﷺ، وبفهم القرآن الكريم والحديث والفقه والتشريع، فضلاً عن كونها سجلاً لنشأة المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية.

أنماط التصنيف في السيرة النبوية



د. عبد الرحمن بن عايد المُفَضَّلِي
جامعة أم القرى (السعودية)



أنماط متعددة يمكن النظر إليها من اتجاهين متكاملين: اتجاه موضوعي يقوم على تخصيص المصنف بجانب بعينه من حياة النبي ﷺ، كالمغازي والسيرة، والشمائل، والدلائل والخصائص؛ واتجاه منهجي يتصل بالطريقة التي عولجت بها المادة، من الجمع والتدوين إلى التهذيب والاختصار والنظم، ثم الموسوعات والشروح والحواشي.

وقد أسهم هذا التنوع في جعل السيرة حاضرة في أكثر من دائرة علمية في وقت واحد؛ فهي عند المؤرخ مادة لبناء التسلسل الزمني، وعند المحدث مرويات تخضع لشروط الإسناد والنقد، وعند الفقيه سياق لفهم الأحكام، وعند الأديب مادة للنظم، وعند المربي مجال للاقتداء والتعليم. ولهذا لا يصح اختزال تاريخ التصنيف فيها في سلسلة واحدة من الكتب المتعاقبة؛ لأن تطورها كان أفقياً بتعدد موضوعاتها، ورأسياً بتغير مناهج التأليف داخل كل موضوع.

لهذا اعتنى المسلمون منذ الجيل الأول بحفظ مغازي النبي ﷺ وسراياه وأيامه، حتى غدت من مواد التعليم المبكر؛ إذ كانت أخبار الغزوات والسرايا تُحفظ وتلقن للأبناء والطلاب. ومن هذا الاهتمام نشأ أحد المنابع الأولى لعلم التاريخ عند المسلمين، إلى جانب أخبار العرب وأنسابهم والفتوحات الإسلامية^(١).

ولم يبق التأليف في السيرة على صورة واحدة؛ فقد انتقلت مادتها من الرواية الشفوية والتقييد الفردي إلى التدوين المنظم، ثم تعددت أغراض المؤلفين وطرائقهم، فنشأت داخل السيرة

(١) للتوسع في هذا الموضوع ينظر: كتابي «أنواع التصنيف في السيرة النبوية»، الصادر عن مركز تقريب العلوم بالرياض، ص ٢٣-٣٤؛ وكذلك كتابي: «عروق الثرى: تشكل علم التاريخ وتكوين المؤرخ عند المسلمين، الذي سيصدر قريباً عن دار إدراك بالمدينة النبوية، ص ١٧-٣٩.

الحمد لله الذي جعل
محمد وآله وصحبه وسلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَحَمْدُ اللَّهِ وَسُلاَمٌ عَلَى
رَسُولِهِ وَمُؤَلَّاوَاتِهِ وَاللَّهُ رَحِيمٌ وَهُوَ تَسْلِيمٌ



فَالْأَقْبَرُ الْبَيْتُ الْخَوَالِجُ وَهُوَ خَمْسِينَ بَيْتًا
وَيُتَوَرَّعُ فِيهِ الْكُتُبُ الْأَنْعَامُ وَجَمْعُ الدُّفَرَاتِ عَلَى الْمَشْرِجِ
الْمَعْلَمِ زَيْنُ الْبَقَّةِ خَمْسُ الْأَمْثَلَامِ أَيْ الْقَاصِمِ عَنِ الدُّبُرِ كَمَا فِي رُحْمَتِهِ
الْتِمِصِي بِمَشْفَى جَمْعٍ مَرْتِنَةٍ أَرْبَعٌ وَمَا نَبِزُوا رَجْعًا يَدِيغُ يَدِيغَةً
الْإِسْلَامُ فَوْقَهَا حَاجِبَاتُ بَلَّحِ أَحَبُّكُمْ الشَّيْخُ الْأَدِيبُ الْفَقِيرُ

الـ

أولاً: الاتجاه الموضوعي في تصنيف السيرة النبوية:

١ - المغازي والسيرة النبوية

يمثل التصنيف في المغازي والسيرة أقدم أنماط التأليف في حياة النبي ﷺ. ففي مرحلته الأولى لم تكن هناك كتب مكتملة البناء بالمعنى الذي استقر لاحقاً، وإنما مدونات ومرويات يجمعها كبار التابعين عن الصحابة، ويرتبون بعضها بحسب الوقائع، ويضمون الروايات المتفرقة في سياق واحد. ومن أشهر رجال هذه المرحلة عروة بن الزبير (ت ٩٤هـ)، وأبان بن عثمان بن عفان، وعامر الشعبي (ت ١٠٣هـ)، ومحمد بن شهاب الزهري (ت ١٢٤هـ).

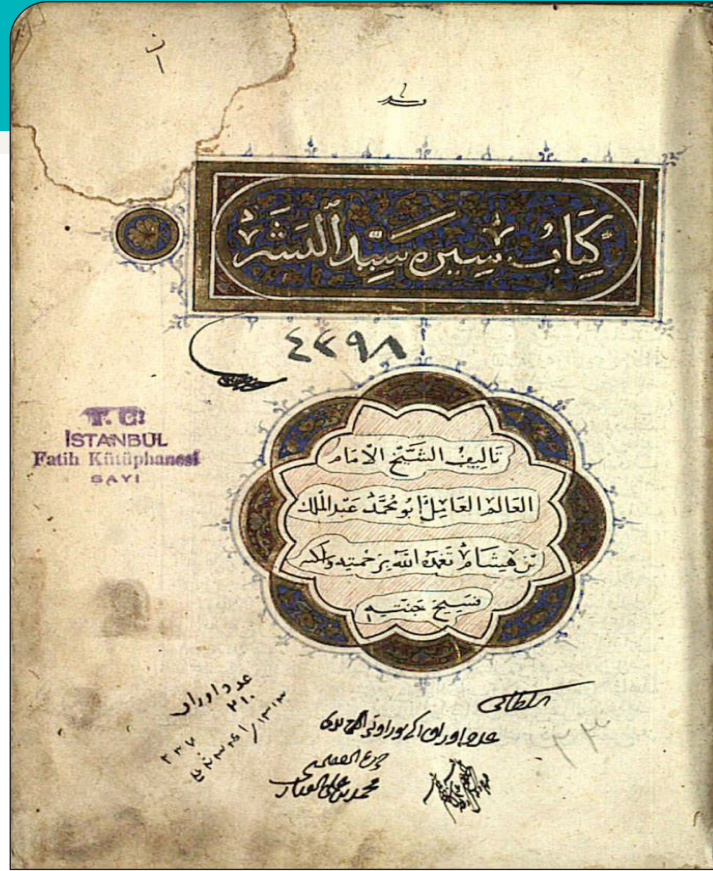
وقد أسهم هؤلاء في تثبيت مادة المغازي وتمييزها عن سائر الأخبار، وفي بناء ترتيب زمني للحوادث وجمع طرق الرواية. ثم جاءت مرحلة المصنفات المؤسسة مع موسى بن عقبة (ت ١٤١هـ)، ومحمد بن إسحاق (ت ١٥١هـ)، ثم محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧هـ). ويُعد «المغازي» لموسى بن عقبة من أوثق ما عرف من المصنفات المبكرة، بينما مثل كتاب ابن إسحاق نقلة واسعة؛ إذ لم يقتصر على الغزوات، بل جمع

النسب والمولد والمبعث والهجرة والعهد المدني، فاقترب من مفهوم «السيرة» بمعناه الشامل. أما الواقدي فامتاز بتفصيل أخبار الغزوات والسرائي وأوقاتها وأماكنها وطرقها.

ومع نضج التأليف لم تعد السيرة محصورة في الكتاب المستقل، بل دخلت في أنماط أخرى من المصنفات؛ فخصص محمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ) جزءاً كبيراً من «الطبقات الكبرى» للسيرة، وأدرجها خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ) والطبري (ت ٣١٠هـ) في كتب التاريخ العام، كما حفظت كتب أخبار مكة والمدينة للأزرقي وعمر بن شبة والفاكهي قدرًا مهمًا من مادتها بحكم اتصال الحرمين بأحداث الحياة النبوية.

٢ - الشئائل النبوية

نشأ التصنيف في الشئائل من الحاجة إلى جمع الأخبار المتعلقة بشخص النبي ﷺ وصفاته الخلقية والخلقية وأحواله الخاصة وهديه في معاشه. فإذا كانت كتب المغازي معنية أساسًا بالأحداث ومسار الدعوة، فإن الشئائل نقلت مركز الاهتمام من الحدث إلى الشخص.



وفي الخصائص اتسع التأليف حتى ظهر في صورة جامعة في «الخصائص الكبرى» لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ).

ويكشف هذا التطور عن ميل واضح إلى التخصص؛ فلم يعد المؤلف ملزمًا بسرد الحياة النبوية كلها، بل صار بإمكانه أن يجعل جانبًا واحدًا منها موضوعًا مستقلًا.

ثانيًا: الاتجاه المنهجي في تصنيف السيرة النبوية:

إذا كان الاتجاه الموضوعي يجيب عن سؤال: في أي جانب من السيرة صُنِّفَ الكتاب؟ فإن الاتجاه المنهجي يجيب عن سؤال: كيف عولجت هذه المادة؟ وتكشف متابعة هذا الاتجاه عن تطور صناعة التدوين في السيرة عبر القرون.

١- الجمع والتدوين المبكر:

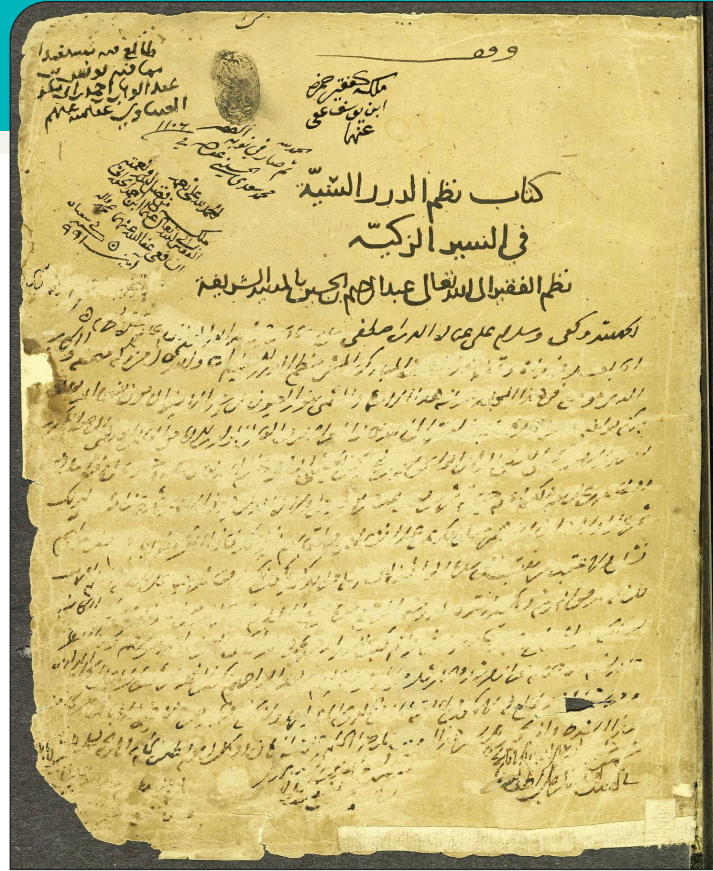
كانت البداية بجمع المرويات وتقييدها وتمييز أخبار المغازي عن سائر الأخبار. وتمثل أعمال عروة بن الزبير والزهري وغيرهما هذه المرحلة. ثم انتقلت السيرة مع موسى بن عقبة وابن إسحاق والواقدي إلى مرحلة التصنيف المنظم؛ حيث رتبت الحوادث زمنيًا، وجمعت طرق الأخبار، وربطت الوقائع بعضها ببعض في بناء تاريخي متصل. وصارت هذه

ومن أقدم ما عرف في هذا الباب مصنفات بعنوان «صفة النبي ﷺ»، ثم ظهرت مؤلفات أكثر تخصصًا في أخلاقه وصفاته ومزاحه وأحواله. ومن أشهر ما استقر عليه هذا الفن كتاب «الشمائل» لأبي عيسى الترمذي (ت ٢٧٩هـ)، الذي صار أصلًا من أصوله، وجمع فيه صفة النبي ﷺ وهيئته ولباسه وطعامه وعبادته وكلامه ومشيه وجلوسه وأخلاقه. ثم نشأت حوله حركة واسعة من الاختصار والشرح والحاشية، فأصبح الكتاب الواحد أصلًا لسلسلة متتابعة من المؤلفات.

٣- الدلائل والخصائص النبوية:

أما دلائل النبوة فتعني بما يدل على صدق رسالة النبي ﷺ من المعجزات والبشارات والآيات، في حين تعني الخصائص بما اختصه الله به من الأحكام والفضائل والكرامات. وكانت هذه المادة ماثلة أولًا في كتب الحديث والمغازي والمناقب، ثم استقلت بالتأليف.

ومن أشهر مصنفات هذا الفن «دلائل النبوة» لأبي نعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ)، و«دلائل النبوة» لليهقي (ت ٤٥٨هـ)، الذي أصبح من أوسع كتب هذا الباب وأشهرها.



المصنفات أصولاً رجع إليها مؤلفو القرون اللاحقة.

٢- التهذيب وإعادة بناء النص:

ظهر بعد ذلك نمط مهم يقوم على أخذ مصنف سابق وإعادة تحريره. وأشهر مثال عليه «سيرة ابن هشام» لعبد الملك بن هشام (ت ٢١٨هـ)، فقد أخذ رواية ابن إسحاق، فهدبها، وحذف منها ما رآه خارجاً عن غرض السيرة، واختصر بعض الأخبار والأشعار، وأضاف أنساباً وتفسيرات لغوية وروايات أخرى. وبهذا صار التهذيب نفسه لوناً من ألوان التصنيف، لا مجرد نقل لكتاب سابق.

وقد غلبت رواية ابن هشام على تداول كتاب ابن إسحاق حتى أصبحت من أشهر كتب السيرة في التراث الإسلامي، وهو مثال مبكر وواضح على إعادة إنتاج النص التاريخي وفق مقصد جديد.

٣- إدخال السيرة في أنواع التصنيف الأخرى:

مع نضج العلوم لم تعد السيرة فناً مغلقاً، بل صارت مادة مشتركة بين التاريخ والحديث والطبقات والبلدان. فدخلت في «الطبقات الكبرى» لابن سعد، وفي التواريخ العامة لخليفة والطبري، وفي كتب مكة والمدينة.

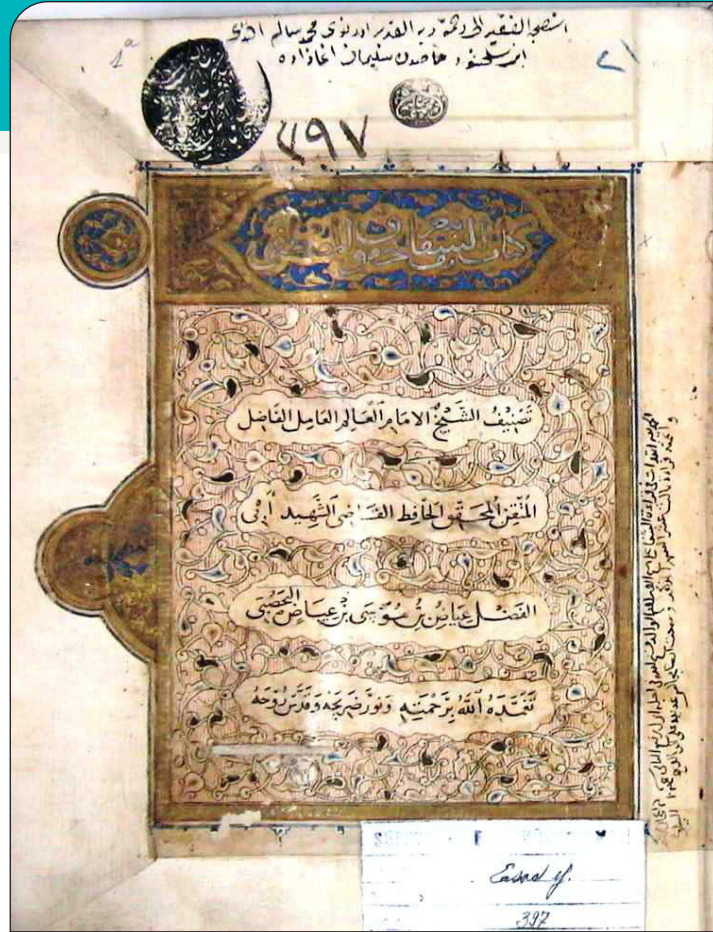
كما دخلت في المصنفات الحديثية والفقهية؛ ففي «صحيح البخاري» كتاب مستقل للمغازي، وتوزعت أخبار السيرة في «صحيح مسلم» والسنن والمسانيد والمعاجم بحسب شرط كل مصنف.

ويمثل هذا النمط مرحلة مهمة؛ لأن الخبر الواحد صار يؤدي أكثر من وظيفة: تاريخية في كتاب السيرة، وحديثية أو فقهية في المصنف الحديثي، وجغرافية أو عمرانية في كتب أخبار المدن.

٤- الاختصار والتلخيص والتهذيب:

حين تضخمت كتب السيرة وكثرت رواياتها ظهرت الحاجة إلى تقريبها للطلاب والقراء، فنشأ الاختصار بوصفه نمطاً مستقلاً. ومن المصنفات المبكرة التي صرحت بهذا الغرض «اختصار سيرة رسول الله ﷺ» ليعحي بن عبد الله الليثي القرطبي (ت ٣٦٧هـ)، ثم «أوجز السير لخير البشر» لأحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ).

ومن أشهر مختصرات السيرة «جوامع السيرة» لابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦هـ)، و«الدرر في اختصار المغازي والسير» لابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ).



٦- التدوين الموسوعي:

مع تراكم المصنفات ظهرت الحاجة إلى جمع الفنون المختلفة في كتاب واحد، فنشأ الاتجاه الموسوعي، الذي يجمع السيرة والمغازي والشمال والدلائل والخصائص والأنساب وغيرها. ومن أشهر نماذجه «عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير» لابن سيد الناس (ت ٧٣٤هـ)، وهو عنوان يكشف بنفسه عن الجمع بين أكثر من فن في مصنف واحد. ثم اتسع هذا الاتجاه في «المواهب اللدنية بالمنح المحمدية» للقسطلاني (ت ٩٢٣هـ)، وبلغ درجة كبيرة من الاستيعاب في «سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد» للصالح الشامي (ت ٩٤٢هـ)، الذي جمع مادة ضخمة من كتب السيرة والحديث والشمال والدلائل والخصائص. وهنا تحولت السيرة من السرد الزمني وحده إلى موسوعة نبوية جامعة.

٧- الشروح والحواشي

كان من نتائج استقرار كتب السيرة الكبرى أن صار الكتاب السابق نفسه موضوعاً لكتاب جديد. فنشأت الشروح التي تفسر

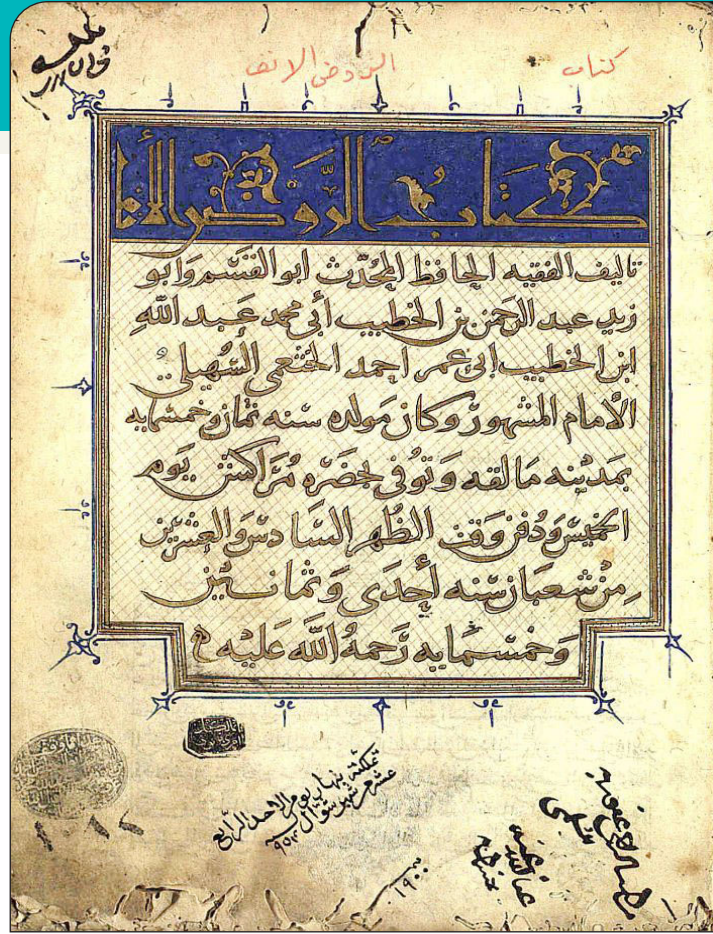
والاختصار هنا لا يعني حذف أجزاء من النص فحسب، بل هو إعادة بناء للمادة من خلال الانتقاء والترتيب وتحديد ما يراه المؤلف جوهرياً. واتصل بهذا النمط التلخيص والتهذيب، فصار الكتاب المطول ينتقل إلى صورة تعليمية أكثر إحكاماً وسهولة.

٥- نظم السيرة النبوية:

ومن أنماط التصنيف المميزة تحويل السيرة إلى الشعر لتيسير الحفظ والتعليم. ومن النماذج المبكرة القصيدة الشقراطية لعبد الله بن يحيى الشقراطي (ت ٤٦٦هـ)، التي اشتملت على جملة من وقائع السيرة والصفات والمعجزات.

ثم اتسع هذا الاتجاه، فظهر نظم «الدرر السنية في السيرة الزكية» للحافظ العراقي (ت ٨٠٦هـ)، و«ذات الشفا في سيرة النبي والخلفاء» لابن الجزري (ت ٨٣٣هـ)، و«جواهر البحار في نظم سيرة المختار» لإبراهيم البقاعي (ت ٨٨٥هـ).

ولم يكن النظم غرضاً أدبياً محضاً، بل كان أداة تعليمية، وكثير من المنظومات صار بدوره أصلاً للشروح؛ فيتحول النص الثري إلى شعر، ثم يعود إلى النثر في صورة شرح وتفسير.



الألفاظ، وتناقش الروايات، وتحقق الأنساب، وتضيف الأخبار والاستدراكات.

ومن أشهر أمثلتها «الروض الأنف» للسهيلي (ت ٥٨١هـ)، وهو شرح واسع لسيرة ابن هشام، تجاوز مجرد تفسير النص إلى معالجة قضايا لغوية وتاريخية وأنسابية. ثم تكاثرت الشروح والحواشي في العصور المتأخرة، ومن أمثلتها شرح الزرقاني على «المواهب اللدنية».

وهكذا أصبحت العلاقة بين كتب السيرة متسلسلة: أصل، ثم تهذيب أو مختصر، ثم نظم أو شرح، ثم حاشية، وربما تحول الشرح نفسه إلى موسوعة مستقلة تفوق الأصل حجماً ومادة.

كما أن هذه الأنماط المنهجية لم تكن منفصلة تماماً؛ فالمختصر قد يكون تهذيباً، والمنظومة قد تكون اختصاراً لمصنف نثري، والشرح قد يتحول إلى موسوعة تتجاوز أصل الكتاب بكثير.

وهذا التداخل من السمات الأساسية لصناعة الكتاب في

السيرة؛ إذ كانت كل صيغة جديدة تستفيد من سابقتها وتعيد تشكيلها بحسب مقصد المؤلف وبيئته العلمية وجمهوره. خاتمة:

تكشف أنماط التصنيف في السيرة النبوية عن تاريخ طويل لتطور المعرفة التاريخية عند المسلمين. فقد بدأت السيرة مرويات ومدونات، ثم تحولت إلى مصنفات مؤسسة في المغازي والسيرة، وتفرعت منها الشرائع والدلائل والخصائص، ثم دخلت في كتب التاريخ والحديث والطبقات، وأعيدت صياغتها في التهذيبات والمختصرات والمنظومات والموسوعات والشروح والحواشي.

ومن ثم فإن دراسة السيرة من خلال أنماط تصنيفها لا تقتصر على حصر عناوين الكتب، بل تكشف عن تطور مناهج العلماء في جمع المعرفة وتنظيمها وانتقائها وتلخيصها وتعليمها وإعادة بنائها. وقد ظل موضوع السيرة ثابتاً في مركز هذا النشاط العلمي، بينما تنوعت طرائق المؤلفين وأغراضهم، وهو ما منح التراث النبوي ثراءً واتساعاً واستمراره عبر القرون.